مدرسة الإسكندرية اللاهوتية"

أ.د/ محمد فتحى عبد الله

(ضيف شرف المؤتمر)
أستاذ الفلسفة اليونانية
المتفرغ – قسم الفلسفة - كلية الآداب
جامعة طنطا

أولا مدخل: مدرسة الإسكندرية اللاهوتية نشأتها ومراحل تطورها واختلاف الآراء حول مؤسسها:

قامت مدرستان لاهوتيتان إحداهما فى الإسكندرية والأخرى فى أنطاكية، وكان السؤال المطروح: أين يجب أن نبحث عن جوهر الإيمان؟ أفى روح الكتاب المقدس أم فى نصه؟ وبينما تبنت الإسكندرية الاتجاه الأول، أخذت أنطاكية الطريق الثانى، بتعبير آخر اختارت الإسكندرية بكل ماضيها وتراثها الفلسفى اللاهوت العلمى الأفلاطونى والتفسير الصوفى المجازى زالتأويل الرمزى، فى حين اتبعت أنطاكية المنهج الأرسطى العقلانى القائم على ظاهر النص وحرفية الكلمة، وكان المنطق الأرسطى باب أنطاكية الواسع الذى دخلت منه إلى هذا الميدان. لقد تميزت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية بالتفكير الحر ومحاولة الدخول بالعقيدة إلى مدارج العقل عن طريق الفلسفة، واستخدام الأسلوب الرمزى المجازى فى دراسة الكتاب المقدس وهذا المنهج لم يكن جديدا على الإسكندرية؛ فالرواقيون استخدموه فى شرح هوميروس واستخدمه فيلون السكندرى فى تفسير اليهودية لمعاصريه عن طريق الفلسفة اليونانية وسار عليه بصورة واضحة أفلوطين السكندرى، وكان علما على خير أساتذة هذا المنهج نعنى أوريجين فيلسوف الإسكندرية الأشهر.

على النقيض من ذلك كانت مدرسة أنطاكية التى تبنت الاتجاه النصى التاريخى أى القول بظاهر النص والبحث عن العناصر الأخلاقية والتاريخية، ورفض المعانى الرمزية والتفسيرات المجازية، وأصبح المنهج المنطقى الأرسطى سمتها الرئيسة ورغم هذا التباين الظاهر بين المدرستين، إلا أن التفسير الأكمل للكتاب المقدس على حد قول ماجيولياس كان فى حاجة ماسة إلى كلا المدرستين[١] وما يهمنا هنا هو مدرسة الإسكندرية اللاهوتية أى الديداسكاليون Didascaleon أو مدرسة المدافعين عن الدين المسيحى، وهى المدرسة المسيحية التى أقيمت فى الإسكندرية لتحويل الوثنيين للمسيحية، ولتعليم مبادئ الإيمان المسيحى، ربما تكون قد بدأت مبكرا فى القرن الأول الميلادى ولكنها حققت شهرتها فى القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث عندما كان أكلمندس وأوريجينوس يتوليان بالتتابع رئاسة هذه المدرسة[٢] كان تأسيس الديداسكاليون كمدرسة تبشيرية تنشر تعاليمها فى منتصف القرن الثانى الميلادى[٣] فقد اختلفت الآراء حول مؤسسها، فإذا كانت المسيحية قد وصلت إلى

---

(١) د/ رأفت عبد الحميد: الفكر المصرى فى العصر المسيحى، الهيئة العامة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٩٦.

(٢) جون مارلو: العصر الذهبى للإسكندرية، ترجمة نسيم مجلى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٤.

الإسكندرية فى القرن الأول، فبعض الباحثين ينسبون المدرسة إلى القديس مرقص، ولكن ظهورها الفعلى يعود للقرن الثانى الميلادى، إن أثيناجوراس الفيلسوف الأثينى الوثنى المسيحى فى نهاية القرن الثانى كان هو الذى وضع أسس هذه المدرسة، والحقيقة إن قيام هذه المدرسة قد لا يعود إلى شخصية بذاتها، فمن الممكن أن تكون قد نشأت بصورة طبيعية كنمو تدريجى لتلك العظات التى كانت تلقى فى الكنيسة للراغبين فى التحول إلى المسيحية، وفى مدينة تعد عاصمة الفكر والفلسفة كالإسكندرية فإن المدرسة بدأت أصلا للموعوظين وكان لابد أن تصبح من بعد معهدا للدراسات اللاهوتية والعلوم الإنسانية التى تخدمها. (١)

وقد خرّجت هذه المدرسة أهم الأساتذة ورجال الدين، ووضعت أسس اللاهوت المسيحى وأظهرت صورة رائعة للمسيحية المثقفة، وهذه المدرسة أنشأت التعليم بطريقة السؤال والجواب، وأصبحت مركزا للتعليم المسيحى، وكان يدرس فيها اللاهوت والفلسفة والمنطق والطبيعة والرياضة والفلك والموسيقى، وكانت العلوم ضرورة لها لوجودها فى وسط ديانة يهودية مستندة للفلسفة ومدارس يونانية، وأصبحت الإسكندرية بحق مركز للثقافة الحرة، فالمدرسة يدرس بها مسيحيون ووثنيون، تحول عدد منهم إلى المسيحية، وأصبحت مقصدا لكل الراغبين فى الدراسات العليا فى شتى علوم الدين والدنيا. (٢)

ثانيا: أبرز أعلام مدرسة الإسكندرية اللاهوتية:

١- القديس مرقص

يحدد البعض مجيئه لمصر بين عامى ٤٨م – ٦١م، ولكن المؤكد أنه استشهد عام ٦٨م. (٣)

٢- أثيناجوراس:

معلوماتنا عن أثيناجوراس قليلة جدا لا تتعدى شهرته فى الإسكندرية باعتباره فيلسوفا أفلاطونيا، ولكنه تحول فى سبعينيات القرن الثانى الميلادى إلى المسيحية، واستخدم دراساته الفلسفية للدفاع عن عقيدته الجديدة ولعل تلك كانت البدايات الأولى أو الإرهاصات المبكرة لظهور مدرسة المدافعين فى الإسكندرية. (٤)

---

(١) د/ رأفت عبد الحميد: الفكر المصرى فى العصر المسيحى، ص ١٠٥.
(٢) د/ زبيدة محمد عطا: قبطى فى عصر مسيحى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣، ص ١٦١.
(٣) د/ عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٧.
(٤) د/ رأفت عبد الحميد: الفكر المصرى فى العصر المسيحى، ص ١٠٦-١٠٧.

٣- بنطانيوس الرواقى:

الثابت لدينا من المصادر المعاصرة أن بنطانيوس الرواقى كان أول من ارتبط اسمه بمدرسة المدافعين فى الإسكندرية، وأنه حسب تعبير يوسيبيوس ترأس هذه المدرسة، ويصفه بأنه كان من خيرة رجال عصره علما ومعرفة، ويضيف جيروم أن بنطانيوس كان يعد فيلسوف المدرسة الرواقية آنذاك، والتى تحمل نزعة صوفية نسكية، وأنه امتلك ناصية الثقافة بفرعيها: الدينى ممثلا فى الكتاب المقدس، والأدبى بارزا فى التراث والفكر اليونانى. (١)

٤- أكلمندس:

حوالى (١٥٠-٢١٥م) أشهر تلامذة أثيناجوراس وبنطانيوس، وقد خلفهما فى رئاسة المدرسة، وقد وجدت الكنيسة الإسكندرية فى أكلمندس مدافعا قويا عن المسيحية ضد الهجمات التى كانت تتعرض لها من جانب الوثنيين واليهود والغنوصيين، ومن ثم يمكن اعتبار أكلمندس أول من خلع على مدرسة الإسكندرية اسمها الذى عرفت به مدرسة المدافعين(٢)، وقد هرب أكلمندس من الإسكندرية عام ٢٠٢م أثناء اضطهاد المسيحيين فى عهد الإمبراطور سفريوس وخلفه أوريجينوس كرئيس لمدرسة الديداسكاليون. (٣)

٥- أوريجينوس:

حوالى (١٨٥-٢٥٤م) درس على يد أمونيوس ساكاس، ثم على يد أكلمندس الإسكندرى، وحين اضطر أكلمندس إلى الهرب من الإسكندرية عهد البطريرك ديمتريوس بإدارة المدرسة اللاهوتية إلى أوريجينوس وهو فى الثامنة عشرة من عمره وصار أعظم أستاذ عرفته الدراسات المسيحية(٤) وفى عام ٢٣٢م نصب أوريجينوس رئيسا حتى نهاية حياته وذلك عام ٢٥٤م بمدينة صور(٥)، ولقد سلك أوريجينوس فى تفسير الكتاب المقدس وعظاته الدينية وتعليقاته وشروحه مسلكا مجازيا، ويجب أن ننظر إلى أوريجينوس باعتباره أبا للتفسير الرمزى فى الكنيسة المسيحية، ولقد كان تفسير الكتاب المقدس تفسيرا مجازيا صوفيا هو هم أوريجينوس الأول دفاعا عن المسيحية، فغدا بحق مؤسسا لمدرسة المدافعين السكندرية. (٦)

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٤.

(٣) جون مارلو: العصر الذهبى للإسكندرية، ص ٢٥٩.

(٤) د/ مصطفى العبادى: مكتبة الإسكندرية القديمة ومصيرها، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١١٩-١٢٠.

(٥) د/ زبيدة محمد عطا: قبطى فى عصر مسيحى، ص ١٦٣.

(٦) د/ رأفت عبد الحميد: الفكر المصرى فى العصر المسيحى، ص ١١٧-١١٨-١٢٥.

٦- هرقل:

عينه أوريجينوس مساعداً له فى المدرسة أثناء رئاسته لها بالإسكندرية، ولما غادر أستاذه المدينة تولى هو رئاسة المدرسة خلفا له، ولكن مكوثه بها لم يستمر أكثر من عام وبضعة شهور حيث اعتلى عرش أسقفية الإسكندرية خلفا لديمتريوس عام ٢٣٢م. [١]

٧- ديونيسيوس:

تولى ديونيسيوس رئاسة المدرسة خلفا لهرقل، وديونيسيوس هو أقرب تلاميذ أوريجينوس إلى نفسه وفكره، وبموت ديونيسيوس عام ٢٦٥م فقدت مدرسة الإسكندرية واحدا من رجالها العظام الذى كان يعد امتدادا طبيعيا لأستاذة أوريجينوس رائد هذه المدرسة اللاهوتية. [٢]

٨- بيريوس:

مع أواخر القرن الثالث الميلادى وأوائل القرن الرابع الميلادى يخبرنا جيروم أن مفكرا يدعى بيرويوس هو الذى كان يقوم بالتدريس فى الإسكندرية، ويذكر جيروم أن بيريوس نشر عددا كبيرا من الرسائل فى مختلف الموضوعات، مما أضفى عليه لقب أوريجينوس الصغير[٣].

٩- آشيلاس:

تولى آشيلاس ٣١١م الإشراف على المدرسة، وكان مسلكه الذى يتصف بالتقوى سندا لتولى الأسقفية بعد موت بطرس سنة ٣١١م الذى يعد آخر الشهداء فى الكنيسة المصرية، وإن لم يمكث بها إلا قليلا جدا، حيث خلفه إسكندر (٣١١-٣٢٨م). [٤]

١٠- ديديموس الضرير:

خلال أسقفية إسكندر وأثناسيوس من بعده (٣٢٨-٣٧٣م) عهدت إدارة المدرسة إلى ديديموس الضرير، ورغم أنه فقد بصره صبيا، إلا أنه تمكن من النبوغ في نواحي المعرفة العديدة محدثا بالشعر، متضلعا من البيان، عالما بالفلك والحساب والهندسة، دارسا للنظريات الفلسفية المختلفة، وقد ترك لنا مؤلفات عديدة معظمها تعليق على المزامير وشروح لإنجيلىْ متى ويوحنا، وخلف كتابا عن الروح القدس، قام جيروم بنقله إلى اللاتينية.

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٦٢-١٦٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٣-١٦٩.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٧٠.
(٤) المرجع نفسه، ص ١٧١.

وبموت ديديموس الضرير دخل تاريخ مدرسة الإسكندرية اللاهوتية فى طور من الغموض يشبه ذلك الذى صحب نشأتها، ولم نعد نسمع عنها شيئا، ولكنها ظلت حتى أواخر عهدها بالحياة على زمن ديديموس الضرير أوريجينية الفكر، ولعل ما يقوله آخر أساتذتها يعبر تعبيرا صادقا عن هذا الاتجاه الذى ساد بها. (١)

ثالثا: اضمحلال المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية ونهايتها:

ذكر يوسيبيوس القيصرى فى منتصف القرن الرابع أن المدرسة كانت مستمرة فى عملها إلى أيامه، وذكر أن الاثنين اللذين خلفا أوريجينوس صارا بطاركة للإسكندرية، أحدهما ديونيسيوس صاحب المعرفة اللاهوتية، وثانيهما ثيودوس الذى كان نابغة فى الفلسفة والعلوم اللاهوتية، وكان يدرس للتلاميذ جميع أنواع المعرفة، وقد ظلت المدرسة مزدهرة ورئيسها يلى البطريرك فى المكانة حتى قام آخر رئيس لها بنقلها من مكانها إلى بلدة بإقليم بامفيليا دون سبب يدعو لذلك، فأضرها هذا النقل ضررا عظيما، وتناقص عدد طلابها، واستمر هذا التناقص إلى أواسط القرن الخامس، ففقدت المدرسة مكانتها وإن ظل بعض رجال الدين فى القرن السادس يدرس العلوم اللاهوتية فى الإسكندرية، ومن بينهم سرجيوس وهارون القس، ومن الأسماء المعروفة فى القرن السادس يوحنا فيلوبنوس النحوى الذى ألف فى الطب والأدب والرياضة، وعلى أية حال فقد ضعف أمر المدرسة اللاهوتية مع القرن الخامس، وتراجع دورها وأصبح الأدب السائد فيها الأدب القبطى، وهو أدب دينى فى مجمله، وأصبحت الأديرة القبطية مصدر ثقافة دينية خلال تلك الفترة. (٢)

ومما لاشك فيه أن الفكر السكندرى ممثلا فى المدرسة اللاهوتية قد أدى دورا بارزا فى صياغة العقيدة المسيحية خلال القرون الأولى للميلاد، وتركت المدرسة بصماتها واضحة على قانون الإيمان المسيحى فى الشرق والغرب على السواء، وأخذ آباء الكنيسة وفقهاؤها الكثير مما طرحه زعماء المدرسة من أفكار وآراء لاهوتية وأخلاقية.

وحتى أولئك الذين وقفوا من هذه الأفكار موقف المعارضة، وكانوا تلامذة لها عيالا عليها، لا تخلو كتاباتهم من كثير من الاقتباسات التى ينقلونها لتأييد آرائهم رغم مخالفتهم الصريحة لها في بعض الأحيان، والذى يدعو للاهتمام – دون الدهشة أن الاتجاهين الكبيرين المتضادين، الأريوسية والنيقية استقيا أفكارهما وقواعد إيمانهما من مصدر واحد، وهو المصدر الذى كان علما عليها، أعنى الأوريجينية، وراحت الطائفتان فى اصطراعهما حول لاهوت

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٧١-١٧٢.

(٢) د/ زبيدة عطا: قبطى فى عصر مسيحى، ص ١٧٢-١٧٣.

المسيح وناسوته تنهلان من هذا النبع الذى لا ينبض، وما جدل القرون من الرابع حتى نهاية السادس إلا حوارا فى عباءة الأوريجينية، أو بتعبير آخر فى رداء المدرسة السكندرية. (١)

ولكن الذى يلفت الانتباه أنه رغم الشهرة الذائعة التى حققتها المدرسة السكندرية فى الأوساط المسيحية فى مختلف أنحاء الإمبراطورية الرومانية، ورغم الانتشار الذى لقيه الفكر الأوريجينى فى الدوائر الكنسية خاصة بين المثقفين، إلا أن المدرسة لم تحقق شيئا من مثل هذا الذيوع بين المصريين أنفسهم، وهذه المسألة تثير علامات استفهام كبيرة توجب تلمس إجابات معينة لهذه التساؤلات.

لعل هذا راجع إلى أن كنيسة الإسكندرية ممثلة فى أسقفها قررت أن تضع المدرسة تحت إشرافها المباشر وسلطان الأسقف كما لو كانت إحدى الإدارات الكنسية، وقد يكون هذا مقبولا فى المرحلة الأولى عندما كانت مهمة المدرسة قاصرة على تعليم الناشئة مبادئ العقيدة المسيحية، وجذب أعداد من الوثنيين إلى مظلة المسيحية، أو بتعبير آخر عندما كانت المدرسة لا تزال مدرسة الموعظين، وتقدم إلى جوار هذه المبادئ العقيدية الأولية دروسا فى العلوم والرياضيات، وقد نشأت على هذا النحو فى حضن الكنيسة أما وأنها قد تحولت إلى مدرسة المدافعين وجعلت مهمتها الأساسية التصدى للرد على خصوم المسيحية من الخارج، أعنى الوثنيين، ومن الداخل أقصد الغنوصيين، وفى الحالتين كان على أساتذتها أن يدرسوا بعمق كل التيارات الفلسفية السائدة، والتراث اليونانى والرومانى، وأفكار ومبادئ الحضارات الشرقية القديمة المحيطة بهم من كل ناحية، وهذا يفضى إلى أن يتفرغ الأكليروس لمهمته الرئيسة، وهى الناحية الرعوية لشعب الكنيسة، وأن يترك لهؤلاء الأساتذة فى المدرسة ميدان العمل الدفاعى عن العقيدة، وكان ذلك أمرا حتميا، لأن هؤلاء جميعا كانوا من العلمانيين، ولم يكونوا من رجال الأكليروس، وكلهم تلقى تعليمه فى مدرسة الإسكندرية الفلسفية، إلى جانب من ظلوا فى وثنيتهم مثل أفلوطين السكندرى وغيره، ولكن يبدو أن أساقفة الإسكندرية كان لهم رأى آخر فى هذا الموضوع، يهدف إلى جعل المدرسة دائرة من دوائر الكنيسة. (٢)

وقد ظهر ذلك واضحا فى موقف الأسقف ديمتريوس من أوريجينوس الأستاذ، ورغم أن الكنيسة اعتمدت على المدرسة فى التدخل فى كثير من مشكلات العقيدة التى ظهرت آنذاك خارج مصر، إلا أن ذلك كان تحت إشراف كنسى كامل، وظلت السيادة الكنسية كاملة إلى

---

(١) د/ رأفت عبد الحميد: الفكر المصرى فى العصر المسيحى، ص ١٧٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٢-١٧٣.

أن تمكنت المدرسة فى شخص أوريجينوس الإفلات من قبضتها، والانتقال إلى فلسطين ومباشرة مهمتها من هناك، وإن بقيت الجذور فى الإسكندرية. (١)

وتفاديا لحدوث مثل هذا الموقف مرة أخرى، رأى الأسقف السكندرى أن يجمع فى يديه الرئاستين، رعاية الكنيسة وزعامة المدرسة، وكان ديونيسيوس هو أول من أقدم على ذلك. وإذا كان لم يقدر لهذا الجمع بين الرئاستين أن يستمر طويلا نتيجة للاضطهاد الوثنى الذى حل بالمسيحيين فى النصف الثانى من القرن الثالث، وأوليات سنى القرن الرابع الميلادى، إلا أن أساقفة الإسكندرية ظلت لهم الكلمة العليا فى أمور المدرسة، وتمثل ذلك بوضوح تام فى شخصيتين رئيستين آنذاك هما أثناسيوس، وثيوفيلوس. وإذا كان قد جمع بين الرجلين حبهما وتقديرهما الكامل للمؤسس الحقيقى للمدرسة اللاهوتية أوريجينوس وأفكاره، إلا أن أولهما كان يفعل ذلك على استحياء كامل، يمتدح الأستاذ دون أن يعلن صراحة رضاه عن أفكاره وآرائه اللاهوتية، خاصة بعد أن ظهرت الأريوسية التى تستند فى جوهر أفكارها إلى الأوريجينية.

أما ثانيهما فقد انقلب على عقبيه بشأن اللاهوتى اللاتينى جيروم، وأدار ظهره تماما لأوريجين والأوريجينية وأعلن إدانتها، وإن كان فى سريرة نفسه غير راضٍ عما يفعل، وكان أمرا منطقيا أن يتبع الناس زعامتهم الدينية فيما تذهب إليه. (٢)

وبعد أحداث نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس استأنفت الإسكندرية حياتها العادية، وأصبحت مركزا لحياة فكرية جديدة عمادها المسيحية ومدرستها التعليمية الشهيرة. وتوافد التلاميذ من جميع أرجاء العالم المسيحى على المدرسة التى زعموا أن مؤسسها هو القديس مرقص نفسه، والتى حظيت من قبل بتعليم أكلمندس وأوريجينوس. وأثناء القرنين والنصف التاليين اكتسبت المدينة طابعا جديدا وثقافة جديدة تماما، ولم يعد للمؤسسات القديمة السرابيون، والمسيون، ومكتباتهما أى ذكر على الإطلاق. (٣)

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٧٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٣-١٧٤.

(٣) د/ مصطفى العبادى: مكتبة الإسكندرية القديمة ومصيرها، ص ١٥٤-١٥٥.

قائمة المراجع

١- جون مارلو: العصر الذهبى للإسكندرية، ترجمة نسيم مجلى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢.

٢- د/ رأفت عبد الحميد: الفكر المصرى فى العصر المسيحى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠.

٣- د/ زبيدة محمد عطا: قبطى فى عصر مسيحى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣.

٤- د/ عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢.

٥- د/ مصطفى العبادى: مكتبة الإسكندرية القديمة ومصيرها، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، ٢٠٠٢.